الكاتبة الصامتة النمساوية أيلفريده يلينِك

علي يحيى منصور¿

وقع اختيار الأكاديمية السويدية على الكاتبة النمساوية أيلفريده يلينِك لنيل جائزة نوبل للآداب للعام ٢٠٠٤. ويكون بهذا نصيب الأدب الألماني خلال أربع سنوات جائزتين نوبليتين، بعد أن حصل قبلها جونتر جراس على الجائزة في العام ١٩٩٩. تكاد الكاتبة أن تبقى مغمورة الاسم في العالم، حتى بعد تلك الجائزة الحلم. ثارت ثائرة النقاد في النمسا وخارجها بعد إعلان خبر المنح، وانصبت ألسنة اللهب من الأقلام على صفحات الصحف والمجلات، حتى ظن القراء أن حريقاً قد شب ليأتي على الأخضر واليابس. نعم، قالت صحيفة "دي تسايت" الألمانية في ملحقها الأدبي، إن منح أيلفريده يلينِك جائزة نوبل يمثل صدمة لم يفق منها أحد بعد. وتصاعدت الأصوات الساخطة من كل صوب، بينما ضاعت الأصوات المنصفة، على قلتها، أمام هدير جوقة الغاضبين.

والواقع أن الحدث النوبلي قد شق الصفوف في الجهات كافة. تأتأ المهنئون أثناء نطق المديح لأيلفريده، فجاءت شعارات دفاعهم متضاربة ومقتضبة. قالوا إن الكاتبة يلينِك: مزعجة، جريئة، جسورة، مليئة بالهواجس، وجبارة في اللغة. قالوها بنبرة لا تخلو من التردد الواضح. وتوقف عالم النشر أياماً عديدة حتى عن ذكر أهم الأعمال الأدبية، واضطربت لغة صحافة القاذورات في النمسا، وفقدت اتزانها وانحدرت إلى مستوى التشفي البذيء. وحتى أيلفريده يلينِك نفسها بدا عليها اليأس، كما لو أنها تفضل أن تناول جائزة نوبل للكاتب النمساوي بيتر هاندكه.

إذاً ما الذي كانت تفكر فيه الأكاديمية السويدية حينما تجاهلت كبار الكتاب العالميين -من أمثال جوزيف روت ومايروكر وليز موراي وبنتشون ودون

¿ أستاذ في كلية اللغات – جامعة صنعاء.

أيلفريده يلينك

دليللو وأبدايك واوتس وبيتوف- لتمنح أرقى جائزة أدبية في العالم لبطلة شجاعة وجسورة للمقاومة النمساوية الداخلية؟ يبدو القرار غريباً بمقاييس الأمور المتعارف عليها. إن أيلفريده يلينِك ليست سوى قديسة مذابح بشرية، وتستحق الثناء والتكريم لأنها دأبت في أعمالها بكل صدق وحرارة على إبراز ما يقيم سلبياً في دواخل النفس البشرية. لكن الجبهة المعادية لهذه الكاتبة تشبّه منح الجائزة لها بمن قدم أغلى جائزة عالمية ليربوع، بدلاً من تقديمها لرياضي محترف في ركض المسافات الطويلة.

ويقول ناقد آخر مدافعاً عن الكاتبة:

"هذا سوء فهم بامتياز، والكاتبة يلينِك بريئة منه كلياً، كما أن سوء الفهم هذا ألقى بظلاله على أعمالها الأدبية منذ زمن طويل".

لقد قيم بعض النقاد نتاج يلينِك الأدبي بأنه يتسم بالبراءة الخالصة وقوة الأسلوب وتعددية الطبقات والثراء الواسع. وقالت إحدى الكاتبات مرة بإعجاب بارد: "إن إيلفريده يلينِك لا تكتب كتباً بل تكتب ملء كتب".

إن أيلفريده يلينِك ليست سوى قديسة مذابح بشرية، وتستحق الثناء والتكريم لأنها دأبت في أعمالها بكل صدق وحرارة على إبراز ما يقيم سلبياً في دواخل النفس البشرية

لكن الفريق الآخر يرى العكس، ويذهب إلى أن روايات يلينِك خالية، وهكذا ينبغي أن تبقى، إنها خالية من العواطف وخالية من الشاعرية، ليس فيها سماء ولا حب ولا أفكار ولا ألوان ولا

أنغام ولا روائح ولا نور، وليس فيها عالـم دنيـوي ولا عالم غيبـي، إن فيها مـادة واحدة فحسب، ومن هذه المادة مواد احتياطيـة لا تعد ولا تحصى: قمامـة، قمامة بشـر، قمامة طبيعة، قمامة علاقات، قمامة حـب، قمامة عوائـل، قمامة وسـائل إعلام، قمامة لغة...

فمـا إن يدخل المرء فضاء الروايات اليلينِكية يتغير العالم كله بومضة عين إلى مجرى مرحاض؛ الرجال يصبحـون خنازير شـهوانية متوحشـة، والنسـاء يصبحن خنزيرات شبقات خانعات، ويتحول الريف الجميـل إلى مقبرة جثث. فهل تريـد يلينِك هكذا أن تصور -بكثير من المبالغة- وطنها النمسـا أمام الدنيا؟ هل يمكن أن يصل وضع المجتمع النمساوي إلى هذا االحضيض؟

يثنـي بعـض النقاد مـن أعمـاق قلوبهم على صراع أيلفريده يلينِك المرير ضد مظاهر العجرفة الرجعية وضد النمسـا ومادية تجارة الإعلام في عالم الرياضة وأوقات اللهـو والتزمت البرجوازي وصناعة أفـلام الخلاعة وهيمنة نظام الأبوة. لكن النقاد ذاتهم ينتقدون الكاتبة على نزعتها العدوانية والعنـاد المتطرف في أسـلوب الكتابـة. كما يتهم آخرون الكاتبة بالجهل المطبق بمسـار الحياة على أرض الواقع. وترد هي قائلة: "في الواقع لا أعرف الكثيـر عن الحيـاة، لكنني غير مجبـرة أبداً على معرفتها، لأنني أعرف كيف تسـير الحياة". ويعني هذا أن الأكاديمية السويدية كانت على خطأ حينما سـلمت جائزتها لهذه الكاتبة التـي تكثر الحديث في رواياتها عن أشـخاص ديدنهم العنف والعبثية. لـذا فإن ما تكتبه، كما يقول المعادون لها، أخلاقياً: إصابة مباشـرة، وجمالياً: استسـلام تام، وأدبياً: إقليمي بحت ليس إلاَّ.

> لا أعـرف الكثـير عـن الحيـاة، لكننـي غـير مجـبرة أبـداً علـى معرفتهـا، لأننـي أعـرف كيـف تسـير الحيـاة

هكـذا هـو أدب أيلفريـده يلينِك: أدب معاد للوطن، ولكنه يعد أدباً فـي كل الأحوال. ووازع الكاتبة الجوهري هو نزع القنـاع بعنف عن المجتمع الكاثوليكي المتزمت في النمسا. ويذهب بعض محللي أدب هذه الكاتبة إلى أن النمسا بلد صغير جداً وأن أيلفريده يلينِـك كاتبة إقليميـة كبيرة جدا. يشـير محللون آخرون إلى فوضى موتيفـات العوالم التي تخلقها يلينِـك في كتاباتها دون حسـاب ولا عد؛ موتيفات يجهلها معظم القراء.

يتسـاءل أحد العارفين لـلأدب اليلينِكي: "هل توجـد قارئة مجرية أو أمريكية تسـتطيع أن تفهم معنـى الأعضاء الجنسـية المقطعة إرباً وقرابين السـائل المنوي والمتزلجين مـن محترفي اغتصاب النسـاء؟ وهل تفهمان سـجادة الموتيفات اليلينِكية المتناثرة في روايات الكاتبة حول التدمير وجاكتات الجوخ والعفونة والسـراويل الجلدية وصور التلفاز ومشاهد سفر الرؤيا؟".

مـا الدوافع التي حملت الأكاديمية السـويدية علـى اختيار يلينِك؟ دأبت الأكاديمية على تسـويغ منـح جوائزها بدقة واختصار، وهذا ما قالته بحق هذه الكاتبة النمساوية: "لقد انهالت أيلفريده يلينِك بالسوط على النمسـا ذما وتشنيعا، بغيظ محتدم وسـخط جارف. وتجسـد رواياتها ("العاشـقات" و"المعزولون" و"عازفة البيانو") عالما دون رحمة".

يعلق نقاد آخرون على بيـان الأكاديمية قائلا: "لعـل الأمر مختلف تمامـاً، وأن أيلفريده يلينِك لا تجسـد في رواياتها أي عالم، وأنها ليست مغتاظة

أصلاً، بل على الأرجح بائسة وتائهة تجاه كل نوع من العوالم. وفي حوار مع الكاتب اندريه مولر قالت يلينِك مرة إن أثقل ذنب اقترفته هو تقاعسها عن المشاركة في الحياة بل متابعة الحياة بأسلوب غير مباشر، وأن هذه الحياة ليست حقا ذلك العالم السطحي الموحي بالكثير أمام باب دارها، بل عالم الصور الهزلية العنيف الذي تعرضه شاشة التلفاز. هذا هو العالم الذي تصوب نحوه آلة لغتها القوية". وتقول يلينِك في روايتها الرائعة "أبناء الأموات": "إن الواقع يأتي ناضجاً وجاهزاً من شاشة التلفاز بعد أن صار في داخله ببطء مقرمشاً بني اللون". وحين سُئلت عن أفضل مكان تود العيش فيه جاء ردها السريع: "أمام التلفاز، والويل لمن يجرؤ على إغلاقه!".

لقد انهالت أيلفريده يلينِك بالسوط على النمسا ذما وتشنيعا، بغيظ محتدم وسخط جارف

تتناول أيلفريده يلينِك في روايتها "عازفة البيانو" (ربما الأفضل بين أعمالها) حياة شابة، البطلة، ابنة أمها، تلتصق مثل ذبابة بتلابيب مجتمع رأسمالية ما بعد الحرب، سادت فيه قيم حياة عبثية. تسرد الرواية أحداث حبس الأم والابنة تحت ناقوس زجاجي على شكل قطعة جبن ضخمة، ولا تستطيعان الخلاص من هذه المصيدة إلاَّ إذا جاء أحد ورفع الناقوس من مقبض في أعلاه. ولا يأتي رافع الناقوس هذا أبداً. تجلس الإبنة بثبات وتبدأ بتقطيع نفسها وجدار عالم ناقوسها الزجاجي بشفرات حلاقة حادة في عملية مضنية، كما تؤكد، لكنها دون ألم.

هذه هي العوالم التي تجسدها لنا أيلفريده يلينِك في رواياتها: عوالم غرائبية تذكرنا دون عناء بغرائبيات عوالم فرانز كافكاً، صاحب "المسخ" و"المحاكمة" و"القلعة".

تبقى أيلفريده يلينِك مجهولة لدى القراء العرب، في انتظار من يسارع إلى ترجمة شيء من أعمالها الروائية.